حوارات

# حوار مع الدكتور الطّيب برغوث(١)

## حاورته هيئة التحرير

## السننية الشاملة: طريق النهضة الحضارية المتوازنة

(١) درس العلوم الشرعية في معهد التعليم الأصلي بباتنة طيلة مرحلتي المتوسط والثانوي، حتى تحصل على شهادة البكلوريا في العلوم الشرعية والتحق بقسم علم الاجتماع بجامعة قسنطينة حتى نال شهادة الليسانس في علم الاجتماع. أصل دراساته الجامعية العليا في علم الاجتماع الثقافي، بمعهد علم الاجتماع بجامعة الجزائر، حيث نال المرحلة الأولى من الدراسة بأطروحة أولية عن: ((نظرية مالك بن نبي في الثقافة)). اشتغل بعد تخرجه في الجامعة في حقل الإعلام الإسلامي التابع لوزارة الشئون الدينية الجزائرية، حيث أشرف على مجلة الرسالة، وكان عضوا في هيئة تحرير جريدة العصر ومجلة الأصالة.

التحق بهيئة التدريس بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة وشغل بالجامعة عدة مناصب علمية وإدارية، منها نائب مدير معهد مكلف بالدارسات العليا في معهد الدعوة وأصول الدين، وعضو دائم بمجلسه العلمي، ونائب مدير مركز الأبحاث والدراسات التابع للجامعة.

وكان عضوًا مؤسسًا بجمعية أصدقاء جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، وعضوا بالمجلس العلمي بمديرية الشئون الدينية بولاية قسنطينة منذ تأسيسه.

**أولًا**: أستاذنا الفاضل، مجلة نماء تحمل في عنوانها كلمتين هما: علوم الوحي والدراسات الإنسانية «كيف يقرأ الطيب برغوث» هذه المقابلة؟ وهل لهذه الثنائية مكانة ضمن مشروع الصّيرورات التاريخية لحركة العمران الحضاري الإنساني المتوازن؟

في البداية أشكركم على إتاحتكم لي هذه الفرصة الطيبة، لأعبر عن بعض ما في نفسي من هموم واهتمامات، ولأفضي بها إلى قراء «دورية نماء» الواعدة، التي أعتبر نفسي من قرائها، ومن المقدرين لما يقوم به مركز نماء للبحوث والدراسات عامة، من أعمال مهمة، أقدر بأنها تصب في عمق مشروع النهضة الحضارية الإسلامية المنشودة، التي طال بها الطريق وتشعبت بها السبل، وتعاظمت أمامها التحديات!

أما فيما يخص المحورين الرئيسين اللذين تتمحور حولهما اهتمامات مجلة نماء وهما: علوم الوحي والدراسات الإنسانية، وموقع ذلك من مشروع «منظور السننية الشاملة» الذي أطرحه، وأعتبره مدخلًا كليًّا لأي نهضة حضارية إسلامية أو إنسانية، ذات أفق إنساني وكوني متوازن، وعمق عمراني وأخلاقي وروحاني ورحماني منسجم ومتكامل، فإن هذه المقابلة أو المكاملة بشكل أدق بين علوم الوحي والعلوم الإنسانية بمفهومها العام، تقع في عمق «منظور السننية الشاملة»، ومِن ثَمَّ في عمق شروط النهضة الحضارية الإسلامية والإنسانية المنشودة، وفي عمق شروط التنمية الشاملة التي تتطلبها هذه النهضة الحضارية.

فالنهضة الحضارية الحقيقية، إن شئتم، هي باستمرار مسار تنموي منسجم ومتكامل ومتوازن وفعال ومستدام، يقف وراءه منظور سنني كوني كلي، منسجم مع حقائق الوجود الإلهي، وحقائق الوجود الكوني، وحقائق الوجود الإنساني، ولا يتصادم معها. فإذا تصادم مع أي من حقائق الوجودات الثلاثة، تحول إلى منظور كوني جزئي منقوص السننية، ومتنافر ومهتلك الأجزاء،

وأصبح معوقًا من معوقات النهضة الحضارية الإنسانية المتوازنة، وسالبًا لجوانب أو شحنات قليلة أو كثيرة من خيريتها وبركتها ورحمتها الكونية العامة، وضاخًا لشحنات من الاختلال والفساد والغثائية المفضية بالمجتمع إلى الضنكية والتعاسة الحضارية، وربما التعاسة الأخروية! على اعتبار أن المصائر الأخروية للبشر ما هي إلا محصلات ما زرعه الناس في حياتهم الدنيوية من خيرية وبركة ورحمة كونية، أو مفاسد ومظالم وإخفاقات متعدية الأضرار.

فالنهضة الحضارية التي ينشدها كل مجتمع، هي محصلة حركة تنموية شاملة ومتوازنة ومستدامة. والتنمية المستدامة هي محصلة حركة تنموية معرفية وثقافية شاملة ومتكاملة ومتجددة، توفر للمجتمع شروط تلبية كل ضروريات وحاجيات ومحسنات وجماليات هذه التنمية المنشودة. فإذا ما اضطربت حركة التنمية المعرفية والثقافية، أو تجزأت أو تنافرت مكوناتها ولم تتكامل ولم تتوازن: انعكس ذلك سلبًا على حركة التنمية الروحية والنفسية والسلوكية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.. وأعاق ذلك إنجاز المجتمع لنهضته الحضارية، ودفع به نحو دوامات ومهالك الضعف والتخلف والغثائية والتبعية الحضارية المذلة.

وما نراه من ازدواجية وتنافرية واهتلاكية وإضرار، أو انسجام وتكاملية وتوازن وخيرية وبركة ورحمة كونية، في شخصية الفرد أو في حركة المجتمع، سواء كان مسلمًا أم غير مسلم، هو في النهاية محصلة منظور كوني سنني تكاملي أو تنافري. فالمنظورات الجزئية المتنافرة، لا تنتج إلا شخصية مزدوجة متنافرة مهتلكة ذاتيًا، وإلا مجتمعًا متنافرًا مفككًا خاويًا ضعيفًا، مهما حاولت الطلاءات الخارجية تزيين وتلميع مظهره الخارجي.

فالمنظورات الكونية إذن هي القاعدة التحتية التي تتأسس عليها المنظومات المعرفية والثقافية والتربوية، التي تؤثر في تفكير الإنسان وسلوكه وأدائه الذاتي والاجتماعي والسياسي والحضاري عامة، وتطبعه بالخيرية والبركة والرحمة الكونية والفعالية الإنجازية العالية، أو بالفساد والتعاسة والضنكية والفعالية الإنجازية المهتلكة المنهكة.

وهذه الأطروحات أو الرؤى الجزئية المفاضِلة أو المنافرة بين علوم الوحي والعلوم الإنسانية والاجتماعية أو الكونية عامة، هي منتجٌ أو مفرزٌ من مفرزات المنظورات الكونية الجزئية ومنتج من منتجاتها السلبية، المؤثرة بعمق في الحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية بل والكونية، لأنها تحرمها من كثير من شروط وإمكانات التنمية الشاملة والمتكاملة والمتوازنة لكل أبعاد وملكات وقدرات الشخصية الإنسانية، كما تحرم المجتمع كذلك من كثير من شروط وإمكانات التنمية الشاملة والمتكاملة والمتوازنة والفعالة، وتزج بهما معًا، أي الفرد والمجتمع، في دوامات التنافرية الذاتية والاجتماعية المنهكة.

فالمنظورات الكونية الجزئية غير التكاملية، هي بطبيعتها منظورات تنافرية في كثير من الأحيان، لأنها تجد نفسها باستمرار في صدام مع مكونات الحياة الكثيرة الأخرى، التي لا تدركها أو لا تعترف بها هذه المنظورات الجزئية، فتقع في صراع معها، وغالبًا ما تكون نتيجة هذا الصدام هدر وإنهاك الطاقة الإنسانية، وتشويه الشخصية الإنسانية، وهدر وإنهاك الإمكان الحضاري للمجتمع، وتفكيك شبكة علاقاته الاجتماعية، وتوهين إرادته الحضارية، وتعريضه لمخاطر الغثائية والتبعية الحضارية المذلة. وتلك عاقبة مصادمة سنن الله الغلابة في خلقه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ **فاطر: ٤٣**.

هذا ما تفعله المنظومات المعرفية والثقافية والتربوية والاجتماعية الجزئية التنافرية، المنبثقة عن منظورات كونية جزئية متنافرة، لا تمتلك القدرة على تغطية وتلبية كل ضروريات وحاجيات ومحسنات ومرقيّات الشخصية الإنسانية للفرد، والحركة الثقافية والاجتماعية والحضارية للمجتمع، بشكل متكامل ومتوازن وفعال.

وبدون منظور سنني شامل ومتكامل ومتوازن، ومطابق أو منسجم مع حقائق وفِطر الوجود الإلهي ومقتضياته، والوجود الكوني ومقتضياته، والوجود الإنساني ومقتضياته، لا يمكن للإنسان فردًا أو مجتمعًا، أن يحقق هذه التكاملية والتوازن والانسجام والفعالية والخيرية والبركة والرحمة الكونية المطلوبة في حياته، وستظل حياته وحركته الثقافية والاجتماعية والحضارية عرضة للتنافرية الحدِّية المنهكة.

**ثانيًا: ماذا تقصدون بالمنظورات الكونية؟ وأي هذه المنظورات الكونية أقدر على تحقيق التكاملية والتوازن والفعالية والخيرية والبركة والرحمة الكونية في حياة الإنسان؟ وهل هي موجودة أصلًا؟ وأين هي إن كانت موجودة فعلًا؟**

المنظورات الكونية هي الرؤى الكونية التي يمتلكها الإنسان عن وجوده وعن رسالته في الحياة، وعن حقيقة الحياة ومصيرها، وعن حقيقة ومصير الكون، وعن الله الخالق سبحانه وتعالى، وعن طبيعة العلاقات التي تربط بين هذه الموجودات كلها من ناحية والوجود الإلهي من ناحية أخرى، ومقتضيات ذلك كله. فالمنظور الكوني هو هذه الرؤية الكلية الموجودة عند الإنسان عن الدورة الوجودية الكبرى للإنسان والكون والحياة، وموقعه منها ودوره فيها، ومدى مطابقتها لحقائق الوجود الإلهي والكوني والإنساني، أو قربها منها أو بعدها عنها.

وليس هناك إنسان لا يمتلك منظورًا كونيًّا على الإطلاق، فالمنظور الكوني فطرة أو حتمية وجودية بالنسبة للإنسان، بغض النظر عن مدى جزئية أو شمولية، وصحة أو خطأ، وفعالية أو سلبية، ومصداقية أو عدم

مصداقية، ومطابقة أو عدم مطابقة هذا المنظور أو ذاك، لحقائق الوجودات الثلاث. فالحس المنظوري أو البنية المنظورية خاصية ملازمة للهوية الذاتية الإنسانية، ولا تفارقه حتى في حالة جنونه، حيث يكون له منظور كوني آخر مضطرب!

أما بالنسبة للمنظورات الكونية الأقدر على تحقيق التكاملية والتوازن والفعالية والخيرية والبركة والرحمة الكونية في حياة الإنسان، فهي تلك التي تتطابق أو تنسجم رآها ومعطياتها مع حقائق وفطر الوجود الإلهي والكوني والإنساني ومقتضياتها جميعًا، ولا تصادم أو تصادر أيًّا منها، فإذا صادمت أو صادرت أيًّا منها، جزئيًّا أو كليًّا، فهي منظورات جزئية لا تتيح للإنسان ولا للمجتمع الشروط والإمكانات المطلوبة لتحقيق توازنه وتكاملية فعالية جهده، وخيريته وبركته ورحمته الكونية، ويجب عليه أن يعمق النظر والجهد مليًّا فيما حوله من منظورات كونية، ويطيل التأمل فيها والدرس لها، والمقارنة فيما بينها، للحصول أو العثور على مبتغاه الوجودي الأعلى، أو ما يسميه القرآن الكريم بالصراط المستقيم، الذي يحدد للإنسان وجهته ورسالته في الحياة، ويوفر له المزيد من الجهد والطاقة والوقت، ويمنحه المزيد من اليقين والاطمئنان، ويحقق له المزيد من الفعالية الإنجازية المباركة في حياته وفي مجتمعه أو أمته أو عصره.

ومن مقاييس معرفة مثل هذه المنظورات الكونية، مقياس السننية الشاملة، أي أن يكون المنظور الكوني سننيًّا مطابقًا لحقائق وفطر الوجودات الثلاث الأساسية التي سبق الحديث عنها من ناحية، وأن يكون شاملًا لكل الساحات الكونية التي تتوزع عليها أو فيها سنن الله تعالى في الحياة من ناحية أخرى، وأن يكون متوازنًا ومتكاملًا وغير متنافر الأبعاد والمعطيات من ناحية ثالثة.

فالسنن التي تحتاج إليها الحياة الإنسانية الفردية والجماعية لكي تتوازن وتتكامل وتنسجم وتعظم فعاليتها وخيريتها وبركتها ورحمتها الكونية، موزعة على أربع ساحات أو منظومات سننية كونية كلية كبرى، هي ساحة أو **منظومة سنن الآفاق** التي تغطي كل ما له علاقة بالحياة المادية للإنسان وحركته الحضارية، وساحة أو **منظومة سنن الأنفس** التي تغطي كل ما له علاقة بالحياة الفكرية والنفسية والاجتماعية والحضارية للإنسان وحركته الحضارية، وساحة أو **منظومة سنن الهداية**، التي تغطي كل ما له علاقة بالحياة العقدية والروحية والأخلاقية للإنسان وحركته الحضارية، وساحة أو **منظومة سنن التأييد** التي تغطي كل ما له علاقة بالدعم الإلهي الاستثنائي لحياة الإنسان وحركته الحضارية.

فالمنظورات الكونية التي تمكن الإنسان أو تتيح له الفرصة للانفتاح على كل هذه الساحات أو المنظومات السننية الكونية

الكلية الأربع، والاستفادة من معطياتها جميعًا في فهم نفسه، وفهم طبيعة وحقيقة الحياة، وفهم طبيعة وحقيقة الكون، وفهم علاقة ذلك كله بالله تعالى، والاستفادة من معطيات ذلك كله في تنظيم وإدارة حياته الفردية وحركته الثقافية والاجتماعية والحضارية بشكل متوازن وفعال ومتكامل ومستدام، يحقق المزيد من الخيرية والبركة والرحمة الكونية العامة، هو المنظور الأجدر بالبحث عنه والتبني له والاعتصام به.

أما بخصوص هل مثل هذه المنظورات بهذه المواصفات الكونية موجودة فعلًا؟ وأين توجد؟ فأنا بصفتي مسلمًا منفتحًا على مساحات واسعة من المعرفة والخبرة الإنسانية، أرى أن هذا المنظور السنني الشامل، موجود في صورته الكلية المتوازنة في القرآن الكريم وفي دائرته التفصيلية العملية الواسعة ممثلة في السنة النبوية التشريعية، والسيرة النبوية العملية أو التطبيقية، لأن القرآن بشمولية وتكاملية وسننية رؤيته الكونية لله والكون والحياة والإنسان، ولحركة ولمسار الدورة الوجودية الكبرى للإنسان عامة، يمكِّن الإنسان من الانفتاح على جميع الساحات والمنظومات السننية الكونية الكلية الكبرى، التي تتوزع فيها سنن فهم وإدارة الحياة بشكل متكامل ومتوازن وفعال، بل ويفرض ذلك عليه فرضًا، كما نلحظ ذلك في مثل قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ **آل عمران: ١٣٧.**

بخلاف غيره من كثير من المنظورات السننية الكونية الجزئية الأخرى، التي تضيِّق مجالَ الرؤية الكونية للإنسان، ومجال انفتاحه على المسخرات الكونية المتاحة له، ولعل خير نموذج جزئي معاصر لنا هو نموذج الحداثة المعاصرة، التي تستبعد الانفتاح على ساحتين أو منظومتين سننيتين كاملتين وهما منظومتا سنن الهداية والتأييد، بالرغم من أهميتهما الحيوية الحاسمة في الحياة الإنسانية، إن على مستوى بناء الشخصية الإنسانية السوية المطمئنة، أو على مستوى إدارة الحركة الاجتماعية والحضارية للمجتمعات الإنسانية.

فالقرآن بأفقه الكوني السنني الشامل، وبمنهجيته المعرفية السننية المنضبطة، وبانفتاحه المتكامل على كل الساحات والمنظومات الكونية الكلية الأربع المشار إليها آنفًا، وبرفضه الصارم للتجزئة التنافرية بين هذه المنظومات السننية الكونية الكلية الأربع، وبحرصه الشديد على التنمية الشاملة والمتوازنة والمتكاملة للشخصية الإنسانية، وباستيعابه للشروط التي تحتاج إليها الحركة الاجتماعية والحضارية للمجتمع؛ لكي تنسجم وتتكامل وتتوازن وتعظم فعاليتها الإنجازية، وخيريتها وبركتها ورحمتها الكونية العامة، يمثل المصدر المرجعي الأم للوعي «**بمنظور**

**السننية الشاملة**» المطابق لحقائق الوجود الإلهي والكوني والإنساني.

وفي هذا السياق نفهم معنى ومقاصد وآفاق قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ **المائدة: ٤٨**. كما نفهم معنى ومقاصد وآفاق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ آل عمران: ١٩. ومقاصد وآفاق قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ **آل عمران: ٨٥**. وغيرها من الآيات والأحاديث التي تؤكد على القدرات والمؤهلات والخصائص الذاتية المودعة في الإسلام، التي تجعله الأقدر على تقديم المنظور السنني الكوني الأشمل والأكثر مطابقة لحقائق الوجود الإلهي والكوني والإنساني، وانسجامًا معها، وتلبية لضرورات وحاجات ومحسنات الحياة الإنسانية ومرقياتها في مدارج الإحسان والكمال الإنساني.

**ثالثًا: يرى البعض أن الفكر الإسلامي المعاصر لم يَعُدْ قادرًا على رفع التحديات العالمية الجديدة اليوم، مثل: تحدي القوة العلمية وحركة العمران والتقدم الحضاري والغلبة الإعلامية. فما مدى وجاهة هذا الطّرح في سياقنا المعاصر من منظور مشروعكم الفكري؟**

حركة الحياة يحكمها منطق المداولة الحضارية، الذي يعطي جميعَ البشر الفرصةَ لتحقيق مداولتهم الحضارية والاستمتاع بثمراتها، إذا ما أخذوا بأسبابها، وليس هناك أي إنسان أو مجتمع محروم من ذلك الحق أو من تلك الفرصة، إذا وفر لهما شروطهما المطلوبة. وليس هناك فكر أو ثقافة أو حضارة لها صفة الخلود في الضعف أو القوة، بحكم منطق المداولة المطرد التأثير على الحياة البشرية.

فقانون المداولة الحضارية يعطي الجميعَ الأملَ والفرصةَ لكي ينهضوا ويبارحوا مستنقعات الضعف والتخلف والتبعية المذلة، إذا ما أصيبوا بها، كما ينتزع فرصة المداولة الحضارية من أي فرد أو مجتمع أو أمة أو حضارة، لم تتمكن من المحافظة على شروط استمرارية مداولتها الحضارية، بغض النظر عن أجناس وألوان وثقافات وأديان ومواطن هؤلاء جميعًا، فسنن المداولة الحضارية هي التي ترفع من استوفى شروطها وطابق حياته وحركته مع مقتضياتها، وتخفض بل وتنتقم ممن جهلها أو تجاهلها أو قصَّر فيها، مهما كان ومن كان! كما نبه على ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ آل عمران: ١٤٠.

وهذه المداولة الحضارية الصاعدة أو المتقهقرة، يحكمها «**قانون المدافعة والتجديد**» بشكل مطرد، فمن كانت مدافعته الثقافية والاجتماعية والحضارية أكثر أصالة وفعالية وتكاملية، وقدرة على الاستمرارية التاريخية الطويلة المدى،

حقق نهضته ومداولته الحضارية الصاعدة واستمتع بثمراتها، ومن كانت مدافعته الثقافية والاجتماعية والحضارية أقل أصالة وفعالية وتكاملية وقدرة على الاستمرارية، ضعف وتراجع وتخلف وفقد مداولته الحضارية بقدر ذلك، وطاله منطق الغثائية والتبعية والضنكية الحضارية بقدر ذلك. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ **الأحزاب: ٦٢.**

وأصالةُ وفعاليةُ وتكاملية واستمراريةُ المدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية، يحكمها «**قانون التجديد**» بشكل مطرد، فمن جدد علاقته بسنن الله في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، بشكل شامل ومتكامل ومتوازن ومستمر، تعاظمت أصالة وفعالية وتكاملية مدافعته الحضارية وحقق نهضته ومداولته الحضارية أو حافظ عليها واستمتع بثمراتها، ومن عجز عن تجديد علاقته بهذه المنظومات السننية الكونية الكلية الأربع، تراجعت وتضاءلت أصالة وفعالية وتكاملية مدافعته الحضارية، وطاله الاختلال والضعف وفقد نهضته ومداولته الحضارية بحسب ذلك.

هذا هو المنطق الذي ينبغي في نظري، أن ننظر به إلى أي ظاهرة فكرية أو ثقافية أو اجتماعية أو حضارية، وأن نحللها ونفسرها ونستشرف آفاقها في ضوء مقتضياته وشروطه، فإذا فعلنا ذلك سهل علينا فهم ظواهر النجاح والفشل، والضعف والقوة، والصعود والتراجع في حياة الأفراد وفي حركة المجتمع.. وتخلصنا أو تخففنا على الأقل من التوسع في التفسيرات الغيبية أو الوهمية أو الذاتية أو الجزئية أو السطحية لهذه الظواهر، وتجاوزنا منطق التبرير والمداراة أو المغالطة الذاتية والاجتماعية، ووقفنا على نواقصنا وقصورنا الفعلي، وأمكننا تحديد مسئولياتنا فيه، وبناء استجاباتنا ومواقفنا وخططنا العلاجية والبنائية على أرضية متينة، ووفرنا لها شروط الفعالية والنجاح.

والفكر الإسلامي كأي فكر إنساني آخر، محكوم بمنطق المدافعة والتجديد والمداولة الحضارية لا يخرج عنها، فهو ينمو ويتطور ويتجدد وتعظم فعاليته وخيريته وبركته ورحمته الكونية العامة، بتطور العمران الحضاري للمجتمع والأمة، وبتجدد ضروراته وحاجاته ومحسناته من ناحية، وبتعاظم التحديات أمامه، وبانفتاحه الاستيعابي والاجتهادي والإبداعي عليها من ناحية أخرى، ومواكبته لتحديات حركة المثاقفة الحضارية التي تحدثها حركة المدافعة والمداولة الحضارية العالمية من حوله من ناحية ثالثة. فإذا ما انكفأ على نفسه ولم يواكب حركة المدافعة والمداولة الحضارية من حوله، ولم يجدد نفسه، فإنه يفقد حيويته وفعاليته ومصداقيته.

إن الفكر عامة لا يتطور ولا يتجدد في فراغ، ولكنه يتطور ويتجدد في خضم حركة المدافعة والمداولة الثقافية والاجتماعية والحضارية، وما

تفرضانه من حركة تجديدية شاملة ومستمرة على الأفراد والمجتمعات والأمم، لكي تواكب ما يجري حولها، وإلا قذفت بها حركة المدافعة والمداولة إلى الوراء!

ولا شك أن حالة التخلف والضعف والغثائية والتبعية الحضارية الشاملة، التي تعيش فيها الأمة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية منذ قرون، أثرت بعمق في الحركة الفكرية ودفعت ببعض قواها إلى العكوف على المنجز الفكري والثقافي والحضاري للأجيال السابقة والتمترس خلفه، والتقنفد حوله حتى لا يمسه أحد! والتمترس خلف الأفكار أو الأشياء أو الأشخاص أو أي وضع ما، عندما يطول أمده ويعتاد عليه الإنسان، يتحول إلى مقدس أو شبه مقدس يصعب المساس بأي شيء فيه ولو كان خطأ أو مستنفذ الصلاحية، سواء من المتمترس خلفه أو من غيره!

كما دفعت بقوى أخرى إلى العكوف على المنجز الفكري والثقافي والحضاري للحداثة المعاصرة، والتمترس خلفه، واعتباره الطريق الوحيد للنهضة، واستصغار ما عداه، والتهوين من شأنه، بل واحتقاره أحيانًا وإقصائه! كما دفعت بقوى ثالثة إلى دوامات التلفيقية الشكلية المميعة التي كثيرًا ما تؤول إلى ما آل إليه مسلك الغراب الذي أراد أن يقلد مشية الحجلة، فضيع مشيته ولم يكتسب مشية الحجلة، فأصبح جنسًا ثالثًا ممسوخًا بلا هوية!

وهذه القوى الثلاثة هي التي تؤثر بقوة في الحركة الفكرية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وعلى الحركة السلوكية والاجتماعية لجماهير واسعة من الناس، أما القوى الفكرية الرابعة التي يفترض أن تشكل المصب الرئيس لبقية الروافد الفكرية الجزئية الأخرى، فهي ضئيلة الحضور والتأثير إلى الآن، وهي بدورها تائهة في دوامة التوفيقية التي كثيرًا ما تنتهي إلى التلفيقية! بسبب عدم وضوح الرؤية حينًا، وبسبب ضخامة التحديات الداخلية والخارجية حينًا آخر، وبسبب تشتت وتقطع جهد وطاقة هذه القوى الرابعة، وعدم تكاملية واستمراريته وتحقيقه للتراكمية البنائية المطلوبة فيه من ناحية ثالثة. والخبرة المستفيضة تؤكد لنا أن الجهد المتقطع أو المتنافر لا يمكنه أن يبلغ مقصده مهما كانت عبقريته وفعاليته وقوته الآنية، وإنما العبرة والقيمة للجهد التكاملي المستمر حتى وإن كان قليلًا، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: (أنَّ أحَبَّ العَمَلِ إلى اللهِ أدْوَمُهُ وإنْ قَلَّ) (رواه مسلم). لأن الجهد القليل المتقن التكاملي المستمر، إلى مثله ومثله ومثله.. يعطي في المحصلة التراكمية قوة وفعالية تأثيرية كلية، بإمكانها إحداث التغيير المطلوب في حياة الفرد أو حركة المجتمع.

والخلاصة هي أن الفكر الإسلامي المعاصر تهيمن على مساحات واسعة منه، شحنات لا يستهان بها من النقلية أو الاتباعية والحرفية؛

سواء انتمى هذا الفكر إلى خط أو محور ما يسمى بالأصالة، أو إلى خط أو محور ما يسمى بالمعاصرة أو الحداثة، أو إلى خط أو محور ما يسمى بالتوفيقية التلفيقية المميعة، فالجميع مستلب ولو بنسب متفاوتة؛ إما من سلطة وهيمنة الخبرة التاريخية السابقة، وإما من سلطة وهيمنة خبرة الحداثة المعاصرة، وإما من سلطة وهيمنة التيه بين كل هذه السلطات المتنافرة، المؤثرة سلبًا في واقع الأفراد والمجتمع والأمة عامة!

والفكر الإسلامي لا يمكنه أن يخرج من هذه الدوامة الاستقطابية التنافرية المنهكة، ولا يمكنه أن ينفذ إلى ما في الخبرة التراثية أو الخبرة الحداثية المعاصرة من رشد وخيرية ويستفيد منها، ويتجاوز ما فيها من سلبية وضرر ويتلافاها، ولا يستعيد حيويته وفعاليته وتأثيره وريادته المرجوة في المجتمع والأمة والعالم، إلا إذا انفتح على «**منظور السننية الشاملة**» بكل أبعاده، واقتحم جميع الساحات الكونية التي تتوزع فيها أو عليها سنن بناء الشخصية الإنسانة السوية المتوازنة، وسنن إدارة الحركة الاجتماعية والحضارية المتوازنة، واشتغل عليها جميعًا، واستوعبها جميعًا، وكامل بينها جميعًا، واستفاد منها جميعًا، ومكّن الأفراد والمؤسسات والمجتمع من الاستفادة منها جميعًا، في إدارة حياتهم وأنشطتهم بشكل صحيح ومتوازن وفعال وأصيل.

**رابعًا: أقررتم في العديد من نصوصكم أن التَّكاملية المعرفية في مقاربة حركة التاريخ والحضارة هي الترياق الأفضل لواقع التنافرية المعرفية والتجزيئية الحضارية.. ما معالم المنهج الذي طورتموه لأجل هذا الاعتبار؟**

نعم هو كذلك، فالتكاملية المعرفية هي شرط التكاملية الثقافية والتربوية، التي هي شرط التكاملية الذاتية في شخصية الفرد، وشرط التكاملية الاجتماعية والحضارية في حركة المجتمع، بل وشرط التكاملية مع الحركة الكونية، أي انسجام وتكامل الجهد الإنساني مع الطبيعة والكون، باعتبارهما المحضن أو الرحم التي يعيش فيها الإنسان، وتتم فيه حركته الاستخلافية في الأرض، فإذا لم يتم الانسجام والتكامل معه، فإن ذلك سيؤثر سلبًا في حياة الإنسان الفردية والجماعية بشكل عميق وخطير!

ويا للأسف فإن الحياة الإنسانية عامة، في ظل الثقافات والحضارات المادية عمومًا في التاريخ، التي تمثل الحضارة المعاصرة أقوى نماذجها وأوضحها وأكثرها تأثيرًا، تعاني من الازدواجية والتنافرية المنهكة، التي تسلب منها الكثير من خيريتها وبركتها ورحمتها وطمأنينتها، كما وصف بذلك رينيه دوبو أوضاع الإنسان المعاصر، في كتابه المهم «**إنسانية الإنسان**»، حينما قال: «الإنسان اليوم ليس غريباً عن أخيه الإنسان فحسب، بل الأهم أنه غريب معزول عن أعماق ذاته»! والسبب في ذلك يرجع إلى طبيعة المنظورات

الكونية التي تحكم حركة هذه الحضارة المادية السائلة، المنفلتة من كثير من ثوابت الفطرة الإنسانية والفطرة الكونية التي تحافظ على الهوية الإنسانية للإنسان، من التفكك والتميع والتشوه والانطماس.

والمنظورات الكونية التي تقف وراء الحداثة والحضارة المعاصرة، منظورات جزئية حدية تنافرية منهكة، لأنها لا تنفتح إلا على معطيات ساحتين أو منظومتين سننيتين كونيتين فحسب، وهما **منظومة سنن الآفاق، ومنظومة سنن الأنفس**، أما منظومتا **سنن الهداية وسنن التأييد** فهما محضورتان أو مهمشتان تمامًا على أقل تقدير! ومحاصرتان في الضمائر والمعابد، بالرغم من أهميتهما القصوى في منح منجزات سنن الآفاق والأنفس معناها ومحتواها الروحي والأخلاقي، ورفع مستويات الخيرية والبركة والرحمة الكونية فيها، باعتبار ذلك هو روح التحضر، ومقياس الترقي في الإنسانية.

فالفعل الإنساني أيًّا كان، يحتاج لكي يستكمل «دورته الإنجازية « ويخرج إلى حيز الوجود أصيلًا وفعالًا وتكامليًّا وقادرًا على الاستمرارية التأثيرية الطويلة المدى، إلى معطيات ضرورية من كل منظومة من المنظومات السننية الكونية الكلية الأربع السابقة، وإلا خرج إلى حيز الوجود منقوص الأصالة أو الفعالية أو التكاملية أو القدرة الإطرادية الطويلة المدى أو منقوصًا منها جميعًا.

وهنا تبدو لنا جليًّا المعضلة الكبرى في الفكر الإنساني، وفي الحياة الإنسانية، وفي الحركة الحضارية الإنسانية، وهي معضلة افتقار «الدورة الإنجازية» للفعل الإنساني، إلى المعطيات الضرورية التي تضمن أصالته الروحية والأخلاقية، وفعاليته الوظيفية، وتكامليته الاجتماعية، واطراديته التاريخية الطويلة المدى، لأن المنظورات الكونية التي تقف وراءه منظورات جزئية متنافرة وليست منظورات كونية كلية ومتكاملة. والمقدمات المنقوصة لا يمكنها أن تعطي نتائج كاملة!

والسؤال الكبير هو: كيف نحقق هذه التكاملية المعرفية في كل هذه الأبعاد والمستويات، لكي نحافظ على الهوية الإنسانية للإنسان من ناحية، والهوية الكونية لبقية المفردات الكونية الأخرى من ناحية ثانية، ونتيح للأفراد والمجتمع الشروط المتكاملة التي تمكنهما من بناء شخصية إنسانية متوازنة وفعالة وصالحة، وحركة ثقافية واجتماعية وحضارية إنسانية متوازنة ومنسجمة ونامية الخيرية والبركة والرحمة الكونية العامة؟

والجواب يكمن في نظرنا في الوعي «**بمنظور السننية الشاملة**» كما سبق الحديث عن ذلك. لأنه المنظور الذي يتيح للإنسان الانفتاح على المعطيات السننية الشاملة التي تحتاج إليها «الدورة الإنجازية» لأي فعل من أفعاله، والاستفادة منها

في بناء هذه الأفعال بناءً شاملًا ومتكاملًا ومتوازنًا وفعالًا. أما ما عدا ذلك من المنظورات الجزئية فإنها لا تمتلك القدرة الذاتية على منح الإنسان هذه الإمكانية، وتوفير هذه الشروط، وبالتالي ستظل أفعاله منقوصة الأصالة أو الفعالية أو التكاملية أو التوازن أو الخيرية والبركة والرحمة الكونية العامة.

فمنظور السننية الشاملة هو الطريق المتوازن الآمن نحو النهضة الروحية والأخلاقية والسلوكية المتينة الراقية للفرد، والنهضة الفكرية والثقافية والاجتماعية والحضارية الراقية المتوازنة للمجتمع والأمة، والنهضة التعارفية التثاقفية التكاملية المتوازنة بين المجتمعات الإنسانية، والنهضة التكاملية بين الإنسان والكون، والنهضة العبادية المترقية في مدارج الإحسان بين الإنسان والكون من ناحية، والله سبحانه وتعالى من ناحية أخرى، إذ العبادة لله تعالى وحده؛ تسبيحًا وشكرًا وامتثالًا ومحبةً ورهبةً.. هي المقصد الأسنى، وهي طريق استكمال الإنسانية كما قال الراغب الأصفهاني في هذه العبارة الجميلة في كتابه «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين» التي جاء فيها: «فالإنسان يحصل له من الإنسانية بقدر ما يحصل له من العبادة التي لأجلها خُلق، فمن قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الإنسانية، ومن رفضها فقد انسلخ من الإنسانية».

فالمنهج الذي يحقق ذلك كله، هو «منهج السننية الشاملة» كما سبق بيان بعض ملامحه، والذي فصلنا فيه القول في دراسات كثيرة منشورة والحمد لله، يمكن الرجوع إليها للمزيد من التفاصيل عنه لمن أراد ذلك من المهتمين.

خامسًا: ما ملامح الإصلاح التي يراها الأستاذ الطيب برغوث في ظل ما تسمونه بـــ: واقع الضعف والتخلّف والغثائية الحضارية من جهة، وأوضاع الظلم والتوحُّش والتّعاسة الرّوحية والنّفسية والاجتماعية التي يعيشها الإنسان المعاصر؟

إن واقع الضعف والتخلف والغثائية والتبعية الحضارية المذلة التي تعيشها المجتمعات المستضعفة أو المتخلفة كما تسمى، وكثير من أوضاع الترف والظلم والتوحُّش والتّعاسة الرّوحية والنّفسية والاجتماعية التي تعيشها كثير من المجتمعات المتطورة أو المتقدمة أو المتحضرة كما تسمى.. هذه الأوضاع في عمومها هي نتيجة طبيعية للمعرفة والثقافة التجزيئية المتنافرة لدى المحورين المجتمعيين والحضاريين معًا، التي هي بدورها وليدة المنظورات الكونية الجزئية الحدِّية المتنافرة.

والنتائج المضطربة أو السيئة هي محصلة مقدمات مضطربة أو سيئة كما يقال. فكما تزرع تحصد.

ونحن جزء من محور الضعف والتخلف والتبعية الحضارية، وضحية من ضحايا محور الترف والمركزيات المستعلية علينا، وما لم نضع في حسباننا ومشاريعنا الإصلاحية طرفي المعادلة، فهمًا لهما وتعاملًا معهما، فإن هذه الاستقطابية التنافرية غير المتوازنة، ستتكرس أكثر وتزداد شراسةً وإصرارًا على إدامة ضعفنا واستضعافنا، ولذلك ينبغي على الإصلاح أن يتسع أفقه ومداه ليستوعب المحورين معًا، ويحرص على التأثير في المحور الثاني والتخفيف من نزعته المركزية الاستعلائية الاستغلالية الترفية المتوحشة حينًا والناعمة حينًا آخر!

ومن هذا المنطلق كانت أطروحة «**منظور السننية الشاملة**» التي أتبناها، تتمحور حول ضرورة البداية من جذر المشكلة أو المعضلة الإنسانية الأم، لأن من صلحت واستقامت بداياته، صلحت واستقامت مساراته ونهاياته، ومن فسدت واضطربت بداياته فسدت واضطربت مساراته ونهاياته كما يقال. ونعم في عصر وزمن ومرحلة لا يجدي فيها كثيرًا التفكير أو الجهد أو الإصلاح الانعزالي، لتداخل الظواهر والأوضاع وكثافة تأثير بعضها في بعض.

وجذر المعضلة الإنسانية الأم، يكمن في ابتعاد أو انفصال منظومات الوعي ومنظومات الحياة ابتداء أو أثناء السير، عن **مؤطراتها السننية المركزية الكلية الغائية والمنهجية الأم**، وتوغلها في الجزئيات وتفاصيل الحياة، التي تتحول بدورها مع مرور الزمن إلى كليات مؤطِّرة للفكر والحياة، منفصلة قليلًا أو كثيرًا عن مؤطراتها المرجعية المركزية الأم السابقة عليها، ثم تتحول هذه بدورها إلى كليات مركزية جديدة مؤطرة للوعي والحياة، منفصلة هي أيضًا قليلًا أو كثيرًا عن ثوابتها ومؤطراتها المرجعية السابقة عليها.. وهكذا دواليك تطرد عملية الابتعاد والانفصال تدريجيًّا، وتزداد بعدًا عن محورها ومركزها الأم مع تطاول الزمن، حتى تصل إلى مراحل متقدمة جدًّا من الانفصال يضيع فيها من الأفراد والمجتمع، رأس الخيط الذي يمسك حركة الحياة الإنسانية ويضمن توازنها، ويحافظ على هويتها وذاتيتها الإنسانية.

فإصلاح الحياة الإنسانية، والمحافظة على الهوية الإنسانية للإنسان وترقيتها في مدارج الكمال، يتحقق بقدر ارتباط حركة الوعي والحياة بالبنية الهيكلية الأم للهوية الإنسانية للإنسان، وطبيعة دوره في الحياة ومركزه فيها، والارتكاز عليها في كل تفاصيل الحياة، وإستراتيجياتها وخططها وسياساتها وبرامجها. فإذا غاب الوعي بهذه البنية أو المضغة الأم، أو اضطرب أو تشوه، اضطربت وتشوهت وتنافرت واهتلكت تبعًا لذلك حركة الوعي والحياة الإنسانيين.

ومن أجل مواجهة معضلة الابتعاد والانفصال عن المؤطرات السننية المرجعية المحورية الأم، والمحافظة على رأس الخيط الضامن للبدايات المرجعية الصحيحة، وللتوازن في الحياة الإنسانية، جاء التأكيد على قانون التجديد الدوري الذي يعيد ربط حركة الوعي والحياة بمركزها المحوري الثابت بشكل مستمر، كما يتجلى لنا ذلك في قول الرسول عليه الصلاة والسلام: (**إنَّ اللّهَ يبعثُ لهذه الأمةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ من يُجدِّدُ لها دينَها**) (رواه أبو داود).

والتركيز هنا على تجديد الدين، له معنى ومقصد محوري جدًّا في عملية التجديد للوعي ولحركة الحياة، لأن الدين وهو الإسلام في خلاصته النهائية الأخيرة، هو الذي يعيد ربط الوعي وحركة الحياة بأصول وثوابت الخريطة الكلية للمؤطرات السننية المركزية الكلية الغائية والمنهجية الأم، التي تدار بها حركة الخلافة البشرية في الأرض، ويحافَظ بها على بنية وجوهر الهوية الإنسانية للإنسان ورسالته في الحياة.

ومن أجل بناء الوعي بخريطة هذه المؤطرات السننية الكلية الغائية والمنهجية للحياة، جاءت أطروحة «**منظور السننية الشاملة**» لتؤكد عليها، وتنشر الوعي بها وتعززه لدى أجيال المجتمع والأمة، وتدفعهم إلى إعادة صياغة وبناء وعيهم وإدارة حياتهم على ضوء معطيات ومقتضيات هذا المنظور السنني الكلي المتوازن، المنسجم مع حقائق الوجود الإلهي والكوني والإنساني.

**خلاصة الحوار**: والخلاصة التي ننتهي إليها من كل هذه الجولة معًا، هي أن الإصلاح الفكري والنفسي والروحي والسلوكي والاجتماعي والحضاري في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة، الذي ينقلها من حالة الضعف والتخلف والغثائية والتبعية والمهانة الحضارية، ويحقق لها نهضتها ومداولتها الحضارية المتوازنة، ويسهم بفعالية في تحقيق الإصلاح المتوازن في سائر المجتمعات الإنسانية الأخرى، ويخفف من شحنات المركزية الاستعلائية ومن الترفية والتعاسة والضنكية الحضارية فيها، يمر ويتحقق عبر الوعي «**بمنظور السننية الشاملة**»، والتفعيل لمعطياته ومقتضياته في سائر مناحي الحياة، وبدون ذلك تظل التجزيئية والحديّة والتنافرية المنهكة، والتعاسة والضنكية المتفاقمة، تطحن الأفراد والمؤسسات والمجتمعات، وتعرِّض مصائرها الأخروية لمخاطر جمة.